طريق خارج الصحراء .. استراتيجية امريكا الكبرى

تأليف: كينيث م . بولاك
ترجمة: نجام الجبيلي

عرض لكتاب " طريق خارج الصحراء- إستراتيجية كبرى لأميركا في الشرق الأوسط" لكينيث م . بولاك

عند قراءة هذا الكتاب الضخم الطموح لكينيث م. بولاك ، مدير البحوث في مركز سابان لسياسة الشرق الأوسط التابع لمعهد بروكنغز، فمن الصعب أن لا نتمنى من "جماعة سياسة واشنطن" ، كما يشير إليهم، أن يدركوا بأنهم هم المشكلة.وسيكون أمراً جميلاً لو أن بولاك نفسه ، مثلاً، فكر بصورة أكثر واقعية قبل أن يبرهن، في بحوثه الدراسية وكتابه المقروء على نطاق واسع الصادر عام ٢٠٠٢ بعنوان :" العاصفة المنذرة"، على أن أمريكا ليس لديها "خيار" سوى غزو العراق. وهذا الحكم الهزيل المزعوم الذي جاء على لسان محلل سابق من الـ CIAوموظف رسمي في عهد كلينتون وليبرالي كما يصف نفسه، زاد من خطورة الصيحات الحادة الداعية للحرب.

ومر وقت طويل إلى أن اعترف بولاك بأنه كان على خطأ بشأن العراق. يحتوي كتاب " طريق خارج الصحراء" على اعترافات أخرى بالخطأ.ويتأمل في نقطة واحدة قائلاً:" كان هناك القليل جداً من الأسئلة الموجهة لسكان المنطقة أنفسهم عما يفكرون به وماذا يريدون". ومع ذلك يقدم الكتاب دليلاً ضعيفاً في متابعته لهذه النصيحة. وبينما تلقت الإدارة التي خدمها توبيخاً خفيفاً فهو يدعو السنوات الثماني اللاحقة لسياسة بوش: " متغطرسة على نحو مروع وجاهلة ومتهورة".

والعديد من أحكام بولاك تبدو مشابهة لمثل هذا النقد لإدارة بوش. ولأن أغلب العالم ما بعد الحرب الباردة قد استقر وتمت دمقرطته وازدهر فمن الصحيح احتمالاً الإيحاء ، كما يفعل هو، بأن أميركا يجب أن تلزم نفسها بمساعدة الشرق الأوسط، الذي تعمه الفوضى، على العودة إلى وضعه الاعتيادي.

واقتراحه لـ"إستراتيجية كبرى" لتحقيق هذا، أي جهد طويل على مدى الأجيال قوي وقياسي مشابه لالتزام أميركا مع أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، هو اقتراح طموح لكنه غير منطقي بالنظر لتزايد الاعتماد على نفط الشرق الأوسط. وبولاك على حق حين يقول بأن العنف والاستبداد غير متأصلين في الإسلام وحين يستنتج بأن تهديد الإرهاب الإسلامي مبالغ به.وهو أيضاً على حق حين يقول بأن عدم الاستقرار الداخلي لدول الشرق الأوسط هو من المحتمل جداً أن يكون تهديداً استراتيجياً وهذا الخطر لن يمر حتى ينجحوا في بناء مدارس أفضل وتهيئة فرص عمل للشباب وعدالة اجتماعية أوسع وحكومة شاملة عرضة للمحاسبة. وهو على حق أيضاً في وصف أنظمة المنطقة الحالية كونها مرعبة على نحو فريد وحتى في اعترافه بأن جورج بوش أظهر حدة غير عادية حين دعا إلى تجفيف مستنقعات الأصولية عن طريق نشر الإصلاح.

ويقل الجدل حين يحاول بولاك أن يقدم النصيحة لما يمكن أن تقوم به أميركا في علاج مشكلات الشرق الأوسط. والكثير من معالجاته المقترحة تتكون من خطط وجيزة غامضة ومواعظ سياسية.وعلى مدى ٥٠٠ صفحة تقريباً فإن القليل جداً منها يصف الإجراءات الملموسة لكيفية تحقيق مثل هذه الأمور مثل نشر الديمقراطية أو الارتقاء بالتعليم في مواجهة الحكومات التي تشكك بالإصلاح والشعوب التي تشكك بأميركا. ومن بين الأمور الأخرى يقترح زيادة الدعم العسكري للأنظمة الصديقة. ويقول إن هذا يمكن أن يخلق نوعاً من المقود الذهبي الذي يجعل الحكومات أكثر إذعاناً للرغبات الأمريكية.

ولكن بالتأكيد إن المرء لا يستطيع أن يداري القول بلهفة بأن الشيء الأخير الذي ستجلبه البنادق الكثيرة هو الإصلاح السياسي. وبالتأكيد إن هؤلاء العرب ليسوا أغبياء بحيث لا يستطيعون تفسير هذه المادة المكتوبة. ويقترح في مكان آخر معونة محددة إلى مصر لرفع قانون الطوارئ سيئ السمعة في البلد. وربما هو غير مدرك بأن الكونغرس حاول من قبل أن يحدد شروطاً للمعونة مقابل الإصلاح أو أن المصريين الذين أصبحوا ماهرين في مراوغة النصائح الغربية المتعبة، قد نقحوا سابقاً دستورهم لكي يدمجوا قيودهم " الطارئة" بالقانون العادي. ويتولد لدى المرء الانطباع بأنه حين تستخدم إدارة ديمقراطية بولاك ليجرب إستراتيجيته الكبرى فأنه ربما يؤول حالاً إلى قذف " السباغيتي على الحائط" ليرى " إن كان يلتصق" كما يقول موظف حزين لدى بوش واصفاً مسعى الفريق ذاك لإصلاح الشرق الأوسط.

وسوى برنامج نشر الإصلاح ، وهو هدف الكتاب الرئيسي ، فإن بولاك كتوم على نحو مذهل بشأن القضايا الحالية الملحة أي كيف نخرج من العراق وماذا نفعل لإيران (على الرغم من أنه كان يبدو ،في المقالات الافتتاحية، قلقا بشأن الانسحاب السريع من العراق). في الواقع إنه ببساطة يرسم مخططا لاختيارات سياسية معروفة من دون حكم عابر. ومن المحزن إن هزال الأفكار في هذا الكتاب السميك ليس عيبه الوحيد.

يطلق بولاك إنذارات عالية مثلاً عن المعدلات العالية للنمو السكاني والتمدن والبطالة في الشرق الأوسط. وفي الحقيقة إن هذه اتجاهات قديمة منذ عقود. ويخفق في ملاحظة أن معدلات النمو السكاني قد انخفضت في السنوات الأخيرة. وبعض الدارسين يؤكدون أيضاً بأن هذا الوجه من " التحول الديموغرافي" ،والذي يحتوي على نسبة عالية نسبياً من الناس ذوي الأعمار العاملة (التي تتراوح من ١٨46 – سنة-م) نسبة إلى الأحداث أو كبار السن ، يجب أن يعجل من النمو الاقتصادي للمنطقة تماماً كما حدث في أميركا في أواخر القرن التاسع عشر وشرق آسيا مؤخراً.

إن بولاك يرتكب أخطاءً على الرغم من عمله الطويل في دهاليز السلطة وكتابته نحو سبعين صفحة من الهوامش، ويفتقر إلى الحميمية الأصيلة مع موضوعه. ومن غير الصحيح ،كما يؤكد هو، بأن التعليم في إمارات الخليج خاص على نطاق واسع. ومن غير الصحيح أيضاً بأن الاستثمار الأجنبي الوحيد في البلدان العربية يذهب عملياً نحو ضخ المزيد من النفط: فالأملاك الثابتة والسياحة والمصارف والاتصالات وحتى الصناعة الثقيلة تغري المستثمرين أيضاً.

وتعميمه قديم حين يعلن بأن " البيروقراطيات العربية تخلق تأخيراً طويلاً لقوانين الكمارك والفحوصات أو التفتيش وبقية الإجراءات الروتينية ". حاول أن تخبر بذلك شركة "عالم موانئ دبي" وهي شركة تدير ٤٥ محطة فرعية للحاويات في ٢٩ بلداً أو مشغلي منشآت الشحن العملاقة المتقدمة تكنولوجياً في مصر والمغرب والتي وضعت لتهيمن على تجارة البحر المتوسط. ومن المضلل أيضاً التأكيد بأن " الأنظمة العربية تدعم ضمنياً أو بصورة معلنة سلسلة من الجماعات الإرهابية". بربك ما الحكومات العربية التي يعنيها وأي جماعات يتحدث عنها؟

ويظهر بولاك أيضاً فهماً مزعزعاً للتاريخ. نحن نعلم بأن الإمبراطورية العثمانية تدهورت وسقطت ولكن بقاءها لمدة خمسة قرون، ونصف هذه المدة كدولة عظمى في أوروبا والبحر المتوسط والشرق الأوسط، لم يجعل العثمانيين "فاشلين". وفي مكان آخر يخبرنا بحكمة بأنه " على مدى الزمن فأن ركود الاقتصاديات العربية خلق فقراً كبيراً". وكأنه لم يكن هناك عرب فقراء من قبل، وكأنه لم يكن واحداً من أكثر الأمثلة الحديثة ترويعاً في الإفقار الجماهيري هو الحصار على العراق في عهد كلينتون والذي حطم طبقتها الوسطى ووضع الأساس لفوضى ما بعد الحرب.

وتتحمل أميركا الخطأ قليلاً بصورة عامة ،حسب وصف بولاك، مقارنة بالعرب الحزينين الذي يجب أن نساعدهم على أن يكونوا مثلنا. قيل لنا مثلاً بأن الولايات المتحدة أصبحت متورطة بصورة كريهة في الحرب العراقية الإيرانية الرهيبة في الثمانينيات حين أقدمت بنبل على تسجيل سفنها باسم بلد آخر لكي تحافظ على استمرار تدفق النفط. لا ذكر هنا لتبادل التهاني بين دونالد رامسفيلد و صدام حسين و تجهيزه بالاستخبارات عن طريق الأقمار الصناعية و مقايضة الأسلحة الأمريكية إلى إيران بالرهائن –كل ذلك ساعد على إطالة المذبحة.

يبدو أن بولاك غير مدرك بصورة غريبة للقوى المحفزة للتاريخ. والدليل هو السذاجة الواضحة في هذه العبارة " إن ما يفجر الثورات والحروب الأهلية وباقي الاضطرابات الداخلية هي العوامل السيكولوجية وبالأخص الإحساس باليأس الشديد". فحفلة شاي بوسطن" (إضراب سكان المستعمرات الأمريكية ضد الحكومة البريطانية عام ١٧٣٣ والتي حطموا فيه صناديق الشاي التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية في خليج بوسطن وأشعل فتيل الثورة الأميركية وكان مصدر الهام للكثير من النشطاء والقادة المصلحين مثل غاندي ورمزاً للتمرد ضد المؤسسة-م) لم يتم القضاء عليها بالبروزاك (دواء مضاد للاكتئاب-م). وبالطريقة نفسها يعزو الأحاسيس إلى الفئات الواسعة لسكان الشرق الأوسط وهي خالية من أي سياق أو تفسير. إنهم " السكان الغاضبون" الذين يعانون من " إحباط النقص" و الحقد المرضي على الحالة الراهنة".ونحن نسمع بصورة متكررة عن " غضب العرب على إسرائيل" و "حقد العرب على إسرائيل". لا يوجد مكان فيه إشارة إلى أن مثل هذه المواقف لها علاقة محتملة مع حالة الفلسطينيين التعسة وكرب الهزيمة العسكرية أو ذل الحياة تحت الاحتلال الإسرائيلي.

في الواقع إن جل التشويهات الملحوظة في الكتاب تنبع من نزعة بولاك في حماية إسرائيل أو الدفاع عنها. فهو يضع تأكيدات لامعقولة مثل :" إن دعم أميركا لإسرائيل على مدى السنوات كان عنصراً حاسماً في الفوز بتحالف العرب وضمانهم". ويقدم بدائل كاذبة ومضللة ويعلن مثلاً بأنه " لا يوجد سبب مطلق للاعتقاد بأن إنهاء دعم أميركا لإسرائيل سوف يزيل خطر المتعصبين الإسلاميين من أن يتسلموا السلطة ويوقفوا تصدير النفط. وكيف يكون تقديم المعونة لإسرائيل ،وليس فقط للعرب، مشروطاً أو يهدف إلى تخفيف مثل هذه المخاطر بدلاً من القضاء عليها؟ ويبذل بولاك جهداً بهلوانياً فريداً للبرهنة على أن كره اسرائيل ليس هو العامل المحفز الرئيس الذي يقف وراء الجهاد المسلح ويكرر هذا التأكيد أكثر من أربع مرات ضمن فقرتين. ألم ينزعج من خطابات أسامة بن لادن إلى الشعب الأمريكي إذ قال بأن ما جعله يتحول من حالم إلى ناشط قاتل كانت القنابل الإسرائيلية على بيروت عام ١٩٨٢؟

ويكرر بولاك بصورة مخادعة الأسطورة على أن القاعدة لن تهاجم إسرائيل. وربما يدل المرء على أن التفجيرات في المعابد اليهودية في جربة (جزيرة في خليج قابس بتونس-م) واسطنبول وضد الأهداف اليهودية في الدار البيضاء والتي قتل فيها العديد من الناس كانت ضد السامية وليست ضد إسرائيل. لكن الهجمات في تشرين الثاني عام ٢٠٠٢ في كينيا كانت تستهدف بالأخص سياحاً إسرائيليين. وقد قتل ١٣ شخصاً من بينهم ٣ اسرائيليين بمنتجع في فندق ولا ننسى الصواريخ التي أطلقت بصورة متزامنة على طائرة إسرائيلية تحمل ٢٦١ راكباً على متنها، كانت هذه الحوادث هي "نجاح" القاعدة المثير منذ هجمات البرجين التوأمين. وقد يبدو ذلك مثل التقاط القمل وبالأخص لأن بولاك ،برغم ذلك، يقف إلى جانب أولئك الذين يعتقدون أن هم أميركا هو إحلال السلام بين العرب وإسرائيل أو في الأقل التظاهر بأنها تحاول ذلك.

إن ما هو مزعج في رؤية بولاك افتقارها إلى الوضوح ، وهي تمثل تماماً رؤية زملائه الليبراليين من أصحاب نزعة التدخل والذين من المحتمل أن يصبحوا في السلطة قريباً. ألا يمكننا أن نعترف فقط بأن دعم أميركا لإسرائيل هو مرهق استراتيجياً وأن الدافع من ورائه هو عاطفة جمهور الناخبين المحليين بدلاً من الجيوبوليتيك ذي الكلفة الباردة ؟ ألا يمكننا أن نرى إغراء التدخل في أماكن مثل الشرق الأوسط يتصاعد كثيراً "لأنهم" ضعفاء ولأننا "نحن" عادلون ونبلاء؟ مهما يكن الطيبة التي تكنها " جماعة سياسة" أميركا للشرق الأوسط فإن مزج الانغماس الأعمى لإسرائيل والازدراء لبقية المنطقة إضافة إلى النزوع للأحلام الولسنية (نسبة إلى ولسون١٨٥٦-١٩٢٤ الرئيس الأميركي الثامن والعشرين-م) حول الأهداف القابلة للتحقيق توحي بأننا سنبقى في البرية بعضاً من الزمن القادم.

> في عام ٢٠٠٢ التقيت بأحد الأشخاص البارعين بشؤون الشرق الأوسط من " معهد بروكنغز" في جلسة افتتاح المنتدى الأميركي- الإسلامي العالمي ، والذي أصبح الآن حدثاً سنوياً يرعاه معهد "بروكنغز" بالاشتراك مع حكومة قطر. وسألته :"كيف تجري الأمور؟" وتوقعت أن اسمع منه حديثاً عن الإدراكات الخاطئة المتضاربة عبر الفجوة الحضارية. إلا إن الجواب جاء جافاً :" جيدة. الآن أدركوا بأنهم هم المشكلة".

ملاحظات عن الحياة

تأليف: إلينور كوبولا
ترجمة: ابتسام عبد الله

لقد ارادا مكاناً خارج سان فرانسيسكو الباردة جداً ، حيث بامكان ولديهما اللعب، كما ان فرانسيس اراد مكاناً لزراعة الاعناب ، وقد يستفيد من ذلك في صنع بعض الخمر، وقد دلهما خبير العقارات الى منزل كبير ذي طراز فيكتوري له برج وشجرة صنوبر ممتازة ، وحقول العنب الممتدة حوله، تعود الى حوالي قرن من الزمن، هكذا تكتب الينور، "كان اشبه بمشهد سينمائي، انبهر به"

في الكتاب الذي اصدرته عن ملاحظاتها عن الحياة والزواج.

في الفصل الاول من الكتاب تسجل الينور الهزة الارضية الابداعية الكبرى في زواجها الذي دام اربعة عقود ، فهي لم تسجل (وتطبع بعدئذ) يوميات مشبعة بالحيوية مرحلة تصوير فيلم "يوم القيامة الآن" فقط بل انها صورت بعدسة . ملليمتر . فريق العمل والعاملين في الفلبين ، كان السيناريو الذي كتبه مارتن شين يبدو بلا نهاية مضافاً الى ذلك الميزانية المتضاعفة مع الايام.

في عام ١٩٩١ ، اصبح ماصورته الينور المادة الرئيسة للفيلم الوثائقي. "قلوب الظلام" كان كوبولا مراقباً واما هي فقد تغيرت طريقتها بشكل اقل مما يتوقع المرء، ولكن الحياة لايمكن الحديث عنها، بسهولة وتقول الينور ، ان افكاري تروح وتجيء اماماً وخلفاً وكأن حياتي مسجلة على شريط فيديو يدور في عقلي ويتوقف هنا وهناك وملاحظاتها تبدأ بوضع تاريخ اليوم الذي تتحدث عنه ، ولكنها لاتلتزم بذلك، فذكرياتها قد تكون احياناً غير مرتبة حسب تواريخ وقوعها انها تفضل المشاهد القصيرة التي تتحدث فيها عن شخصيات تعرفهم، او ذكريات تخطر ببالها او شيئاً رأته في ذلك اليوم.

انها تمنح القارئ شيئاً من السيرة الذاتية كما يتلاءم ذلك مع موضوعاتها ، لقد نشأت في كوخ صغير في كاليفورنيا ، من قبل أم يائسة كئيبة تزملت عندما اصبحت الينور في العاشرة من عمرها.

في عام ١٩٦٣ بعد ان عملت مساعدة مخرج في شركة انتاج ايرلندية ، تزوجت من المخرج فرانسيس فورد كابولا.

وفي الكتاب وعبر ملاحظاتها او يومياتها نجد تلميحات حول شوقها الى اكتشاف نفسها كامرأة وأفكارها حول ذلك. وتكتب في تلك الايام عندما كان يفوز رجل باوسكار ، فان اوسكاراً مصغراً كان يمنح لزوجته كي ترتديه في سلسلة حول رقبتها ، وفي فقرة اخرى تقول الينور انها موزعة بين عدة دوافع ، فهي تحب وتحمي عائلتها ، ولكنها تأسف لعدم تمكنها من مواصلة فنها بشكل دائم ، كما انها ليست في مستوى اعلى من الغيرة قلقة ترغب البقاء لوحدها ، وبهذا الشكل فان حياتها لاتختلف كثيراً عن حياتك وحياتي ولكنها عرفت الاحزان ففي ربيع عام ١٩٨٨ توفي ابنها جيو وهو في الثانية والعشرين من عمره في حادث قارب ، ومن اجل احياء ذكراه ، تكتب في المقدمة عن علاقتها به وكيف انها عندما بلغت الخمسين ، ونجحت في سد الثغرة بينها وبين ابنها.

ولكن ماذا عن زوجها ؟ ان افراد العائلة لايلتقون به كثيراً في زحمة العمل لقد بدأ معاً وعليهما الاستمرار في ذلك تتحدث عنه خلال وجوده في البيت ، عندما يفضل ان يسحن الجوز او عندما تكون في الخارج والجمهور يحتشد من حوله، انه لايبالي بفن الينور عندما تحدثه ولكنه يتأثر جداً لما يراه ، انه ينتعش بفاصل فني لا علاقة له بالفيلم الذي يعمل على انهائه ، وهو يهتم بأماكن التصوير حيث ينتقل مع مراحل تصوير فيلم معين ، وهي ترافقه انذاك الى شقة صغيرة قريبة من المكان.

كوبولا وزوجته ينتقلان باستمرار من مكان الى اخر مؤقت وهو أمر يريحها من مهمة شراء وامتلاك الكثير من الحاجيات ، ولكنها مع ذلك تحسن احياناً برغبة لشراء بعض الحاجيات ، ان انتاج مزرعتهما غدا مربحاً ، وهناك سلسلة من (محلات صغيرة لهما) في عدد من الفنادق بدأت في التسعينيات وتقوم الينور بشراء بعض الحاجيات من الحي الصيني في سان فرانسيسكو لتبيعه في (محلاتها).

وحسب دورها في تسجيل بعض مناسبات العائلة ، في افلام وثائقية فان الينور سافرت الى طوكيو لتصوير صوفيا ، ابنتها الصغرى (المخرجة الشهيرة) من خلال قيامها باخراج ، مفقود في الترجمة.

الكتاب ممتع ويتيح للقارئ فرصة للاطلاع على حياة مخرج قدير مثل كوبولا ، وعائلة فنية، تبدوعالمية ولكنها مع ذلك امريكية جداً ، والكتاب اشبه ما يكون بفيلم.

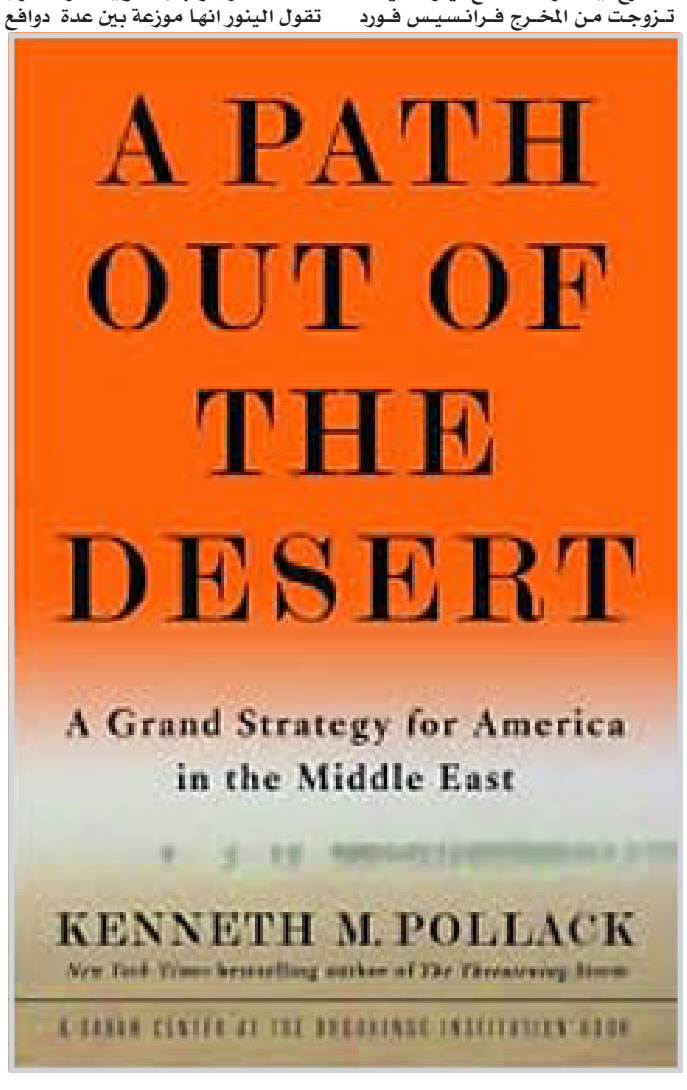

> في اوائل اعوام السبعينيات وبعد الحصول على مبلغ كبير من المال بعد اطلاق فيلم ، الاب الروحي ، ذهب كل من المخرج فرانسيس فورد كابولا وزوجته إلينور . فنانة . خجولة ظاهرياً ولكنها لاتريد التقليل من شأنها . للبحث عن منزل جديد في وادي نابا .